المحاضرة الثامنة : أدب الرحلة في المشرق والمغرب والاندلس

تمهيدٌ

يقول الإمام الشافعي[1] :

تَغَـرَّبْ عَـن الأَوْطَـانِ فـي طَلَـبِ الْعُلَـى وَسَـافِرْ فَفِـي الأَسْـفَارِ خَمْـسُ فَوَائِـدِ :
تَفَـرُّجُ هَـمٍّ، وَاكْتِسَـابُ مَعِيشَـةٍ وَعِلْـمٌ، وَآدَابٌ، وَصُـحْبَةُ مَاجِـد

من المعلوم أن الرحلة معروفة منذ القدم فقد شاعت عند الفراعنة والفينيقيين واليونان والرومان، وغيرهم من الأمم الأخرى، بل هي فطرة إنسانية وضرورة حياتية لا غنى عنها، فـ « ميل الإنسان إلى الاستطلاع، ورغبته في السيطرة على العالم الخارجي دفعاه منذ أقدم الأزمنة إلى التنقل والرحلات، فاندفع من أقليمه إلى الأقاليم المجاورة يكتشف آفاقها، ويرتاد مجاهلها »[2]، والعرب من الأمم التي كان لها نصيب وافر منها، سواء في الجاهلية أو الإسلام، فهي وإن ارتبطت عندهم بداية بالتجارة فارتحلوا إلى الشام واليمن (رحلة الشتاء والصيف المذكورة في القرآن الكريم) وأبحروا في المحيط الهندي شرقا نحو الهند، وغربا نحو شواطئ إفريقيا وأيضا بحثا عن موارد الحياة المختلفة من ماء وعشب وكلإ داخل الجزيرة العربية.

أما في الإسلام فقد تنوعت دواعي الرحلات، ففي بداية الدعوة رحل المسلمون فرارا بدينهم إلى الحبشة من كفار قريش، ولما قويت شوكتهم بعثوا السرايا والجيوش لفتح البلاد المختلفة شرقا وغربا، واستمرت التجارة والسفر إليها رائجة في البلاد العربية، خاصة مع قيام دواوين البريد وجباية الخراج ... وقد كان للحج كذلك الدور البارز في تشجيع الناس على الرحلة لتأدية الفرض وزيارة الكعبة والتعرف إلى مهبط الوحي ومهد النبوة، فقد « بلغت ذروتها، وارتفع شأنها وقيمتها خصوصا خلال فترة الفتوحات الإسلامية، وما تلاها من عصر الاستقرار والازدهار والمعرفة والحضارة »[3]

ومع مطلع القرن الثالث الهجري بدأت الرحلات تخرج عما سبق الإشارة إليه من فتح وحج وتجارة إلى الاستكشاف والاستطلاع، حيث سجل فيها أصحابها ووصفوا ما رأوه خلال رحلاتهم المتعددة، فقد نقل لنا أبو القاسم عبيد الله بن عبد الله بن خُرْدَاذْبَه (ت 272ه) طائفة من رحلات بعض الأفراد؛ من مثل رحلة سلام الترجمان إلى جبال القوقاز بأمر من الخليفة العباسي الواثق بالله، ليستطلع سد يأجوج ومأجوج، ورحلة ابن موسى المنجم إلى بلاد الروم لينظر أصحاب الرقيم (**أهل الكهف**) ورحلة ابن وهب القرشي إلى الصين، إلا أن أهم ما وصلنا في هذا القرن يرجع إلى أحمد بن وهب بن واضح اليعقوبي « الذي ساح في البلدان الإسلامية، فوصل إلى أرمينية ومنها انتقل إلى الهند، وطاف الجزيرة العربية، وبلاد الشلام، فالمغرب إلى الأندلس، ومن ثم عاد بعد سياحاته فألف كتابه ((**البلدان**)) الذي ضم جميع أخباره »[4]

---

[1]- محمد بن إدريس الشافعي، الديوان، دار المعرفة، بيروت، لبنان، ط02، 2005، ص 49.
[2]- أحمد أبو سعد، أدب الرحلات، منشورات دار الشرق الجديد، بيروت، لبنان، ط01، 1961، ص07.
[3]- حسين محمد فهيم، أدب الرحلات، سلسلة عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، يونيو 1989، ع 138، ص 79.
[4]- أحمد أبو سعد، أدب الرحلات، مرجع سبق ذكره، ص 43.

حقوق نشر هذه المحاضرات محفوظة للأستاذ الدكتور طارق ونيسي

ثم جاء القرن الرابع الهجري الذي يعدُّ « من أحفل القرون بأخبار الرحالة العرب وتطوافهم في الأقطار، ففيه انتهوا - على ما رواه الإدريسي - إلى شواطئ أمريكة، وتوغلوا في بلاد الروس، وتنقلوا في العالم الإسلامي من شرقيّه إلى غربيّه، وتحدثوا عما لقوا من التجارب والمشاهدات، خلال رحلاتهم، في مؤلفات لم يزل بعضها حتى اليوم دليل المؤرخ والجغرافي والباحث، ومرجعا من أهم المراجع عن البلدان التي زاروها »[1]

ومن أهم الرحلات في هذا القرن : رحلة ابن فضلان ورحلة المسعودي المعروفة باسم : " **مروج الذهب ومعادن الجوهر** " ورحلة ابن حوقل المسماة " **المسالك والممالك** " .

أما في القرن الخامس الهجري فلا نكاد نجد إلا رحلة أبي الريحان محمد البيروني التي ضمنها كتابه الموسوعي :" **تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مرذولة** "

يعدُّ القرن السادس الهجري من أكثر القرون العربية والإسلامية التي شهدتْ نهوضاً ملحوظاً بأدبِ الرحلة، والذي احتوى على العديد من قصص الرحلات التي ألّفها الرحالة العرب، والذين كانوا يُسافرون من الجزيرة العربية لاكتشاف المناطق المحيطة بهم، أو الذين كانوا يسافرون من بلاد شمال إفريقيا، والأندلس إلى الجزيرة العربية بهدف الحج، والتعرف على الحضارة العربيّة الموجودة في تلك المنطقة، ويعد الإدريسي (ت550ه) صاحب كتاب : " **نزهة المشتاق في اختراق الآفاق** "، هو فاتحة هذا القرن، ثم يأتي بعده ابن جبير البلنسي، وأبو حامد الغرناطي، وفي هذه الفترة أضحت الرحلة « فنا عربيا أصيلا في النثر العربي بسماته التاريخية والجغرافية، واهتمامه بحياة الناس وتقاليدهم، وأنماط عيشهم، وبمضمونه الفكري والاجتماعي، وأسلوبه الأدبي المتميّز غالبا عمَّا سواه » [2]

ثم ركدت سوق الرحلة زمنا عند العرب، إلا بعض الرحلات المعدودة غير المشهورة، إلى القرن الثامن الهجري(14م) الذي بلغت فيها الرحلات أقصى غاياتها، حيث تنوعت واتسعت، ويعدُّ أبو عبد الله محمد بن عبد الله اللواتي الطنجي (ت 779ه) الشهير بـ " **ابن بطوطة** " (♠) أشهر الرحالة العرب قاطبة عبر العصور، وأوسعهم اختراقا للآفاق، وتسجيلا للعجائب والغرائب، فقد قضى في رحلته المشهودة أكثر من ثمانية وعشرين عاما قطع فيها أكثر من مائة وعشرين ألف كيلومتر، بدأها مسافرا من طنجة قاصدا بيت الله الحرام، وهو لم يبلغ الثانية والعشرين من عمره، إلى أنه تقلَّب في بلاد الله حيث قضى سنوات من السفر والترحال ليرجع ويملي مشاهداته ومروياته على أبي عبد الله محمد بن جزي الكلبي بتكليف من أبي عفان المريني، والتي اصطلح على تسميتها بـ " **تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار** "، يقول عنه حسين مؤنس : « هذا رجل حمل نفسه مهمة لا تضطلع بمثلها إلا جمعية كبيرة ذات مال وافر، وهي مهمة استطلاع العالم الإسلامي كله في عصره استطلاعا مباشرا يقوم على المشاهدة والمعاينة والمعاناة وكتابة ((

---

[1]- المرجع نفسه، ص 48.

[2]- عمر بن قينة، اتجاهات الرحَّالين الجزائريين في الرحلة العربية الحديثة، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1995، ص 11.

♠- ينظر للاستزادة : حسين مؤنس، ابن بطوطة ورحلاته تحقيق ودراسة وتحليل، دار المعارف، القاهرة، مصر، ط01، 1980.

علي إبراهيم كردي، أدب الرِّحْلِ في المغرب والأندلس، مطبعة الهيئة العامة السورية للكتاب، وزارة الثقافة، دمشق، 2013.

تقرير)) واف قدر الإمكان عن ذلك العالم الإسلامي الذي ذرعه بالطول والعرض، وشقه بشجاعة وإقدام وصبر ومحبة » [1]

ثم انتعشت من جديد في القرن الحادي عشر الهجري (17 م)، والثاني عشر الهجري (18م)، بفعل شيوع الطباعة وقيامها بأدوار بالغة الأهمية في نشر المؤلفات المختلفة التي تُعنى بالرحلات، ففي القرن السابع عشر تظهر لنا شخصية أبي سالم بن عبد الله بن محمد العياشي (ت 1679م) في رحلته : العياشية أو **" ماء الموائد "**

مفهوم أدب الرحلة: الرحلة لغة :

لقد غطت مادة ((رَحَلَ)) على مساحة واسعة من المعاجم العربية؛ لأنها مادة قريبة من واقع البيئة العربية القائمة على النجعة الدائمة والبحث المستمر على موارد الحياة، أو من أجل التجارة والحج وما شابه ذلك.

فقد جاء في معجم مقاييس اللغة لابن فارس : « (رَحَلَ) الرَّاءُ وَالْحَاءُ وَاللَّامُ أَصْلٌ وَاحِدٌ يَدُلُّ عَلَى مُضِيِّ فِي سَفَرٍ. يُقَالُ: رَحَلَ يَرْحَلُ رِحْلَةً. وَجَمَلٌ رَحِيلٌ: ذُو رِحْلَةٍ، إِذَا كَانَ قَوِيًّا عَلَى الرِّحْلَةِ، وَالرِّحْلَةُ: الِارْتِحَالُ » [2]

وجاء عن ابن منظور قوله : « وارْتَحَلَ البعيرُ رِحْلةً: سَارَ فَمَضَى، ثُمَّ جَرَى ذَلِكَ فِي الْمَنْطِقِ حَتَّى قِيلَ ارْتَحَلَ القومُ عَنِ الْمَكَانِ ارْتِحَالًا. ورَحَلَ عَنِ الْمَكَانِ يَرْحَلُ وَهُوَ رَاحِلٌ مِنْ قَوْمٍ رُحَّلٌ: انْتَقَلَ » [3]

وقال الفيروزآبادي في معجمه : « الرُّحْلَةُ، بالضم والكسر، أو بالكسر: الارْتِحالُ، وبالضم: الوَجْهُ الذي تَقْصِدُه، والسَّفْرَةُ الواحدةُ » [4]

و« (الرُّحال) الْعَرَب الرُّحال الَّذين لَا يستقرون فِي مَكَان وَيحلونَ بماشيتهم حَيْثُ يسْقط الْغَيْث وينبت المرعى (...) (الرحلة) الارتحال (ج) رَحل وَفِي التَّنْزِيل الْعَزِيز: ﴿ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ﴾ وَكتاب يصف فِيهِ الرحالة مَا رأى » [5]

فالرحلة هنا هي ضد الاستقرار والثبات في مكان واحد. واسم الفاعل من (رحل) راحل، وصيغة المبالغة منه رحَّال، وقد عرف بها – لقبا أو اسما – بعض الجاهليين، وزيدت (التاء المربوطة) للمبالغة فقالوا : ((رجلٌ رحَّالةٌ))، كعلَّامة وفهَّامة ...

---

[1]- حسين مؤنس، ابن بطوطة ورحلاته تحقيق ودراسة وتحليل، دار المعارف، القاهرة، مصر، ط01، 1980، ص 07.

[2]- أحمد بن فارس ، معجم مقاييس اللغة، ج02، مرجع سبق ذكره، ص 497.

[3]- أبو الفضل جمال الدين محمد بن منظور ، لسان العرب،ج11، مرجع سبق ذكره، ص 278.

[4]- محمد الدين محمد بن يعقوب الفيروز آبادي ، القاموس المحيط، تح : مكتبة تحقيق التراث في مؤسسة الرسالة إشراف محمد نعيم العرقسوسي، مكتبة الرسالة، بيروت، لبنان، ط08، 2005، ص1005.

[5]- إبراهيم مصطفى وآخرون، المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية بالقاهرة، ج2، دار الدعوة، القاهرة، مصر، دط، دت، ص 335، 334.

حقوق الملك هذه المحاضرات حصرية للأستاذ الدكتور طارق زنيدي

من خلال ما سبق يتبين لنا أن المفهوم الرحلة في اللغة لا يخرج عن كونه السّفر، والانتقال، أو الوجهة أو المقصد الذي يُراد السفر إليه.

أدب الرحلة في الاصطلاح :Littérature de voyages

من معلوم أن الرحلة في مفهومها الواسع مرتبطة بالانتقال من فضاء مكاني إلى فضاء مكاني آخر في فترة زمنية محددة حقيقة أو خيالا *، وذلك لغاية وهدف الكشف والاطلاع والمغامرة؛ إذن فأدب الرحلة هو ما يسجله صاحبها طيلة مسار هذه الرحلة من انطباعات وملاحظات ومشاهدات.

وقد جاء تعريفه في معجم اللغة العربية المعاصرة بأنه: « مجموعة الآثار الأدبية التي تتناول انطباعات المؤلف عن رحلاته في بلاد مختلفة، وقد يتعرَّض فيها لوصف ما يراه من عادات وسلوك وأخلاق، ولتسجيل دقيق للمناظر الطبيعية التي يشاهدها، أو يسرد مراحل رحلته مرحلةً مرحلةً، أو يجمع بين كل هذا في آن واحد » [1]

ويعرفه ناصر عبد الرزاق الموافي بأنه « ذلك النثر الذي يصف رحلة - أو رحلات - واقعية قام بها رحال متميز موازن بين الذات والموضوع، من خلال مضمون وشكل مرنين، بهدف التواصل مع القارئ والتأثير فيه »[2]

وهي تـمثل في مفهومها العام - كما يتصورها صلاح الدين الشامي - « إنجازا أو فعلا فرديا أو جماعيا لما يعنيه اختراق حاجز المسافة وإسقاط الفاصل المعين بين المكان والمكان الآخر، ويتأتى هذا الإنجاز من أجل هدف معين، ويجاوب هذا الهدف إردة الإنسان وحركة الحياة على الأرض بشكل مباشر أو غير مباشر » [3]

ويرى سعيد بن سعيد العلوي أنه : « جنس أدبي له من الصفات والخصائص ما يكفي لتميزه عن الأجناس الأدبية كونه خطاب مخصوص له منطقه الذاتي وبناؤه ومكوناته وعناصره، يجمع

---

*- ونقصد بالرحلة المتخيلة، ما يعرف عند الصوفية بالمعراج الروحي، الذي هو فعل روحي / معرفي مواز للمعراج النبوي، يقول أبو حامد الغزالي (ت505ه) مبرزا حقيقة السفرين الجسدي والروحي: « والسفر سفران سفر بظاهر البدن عن المستقر والوطن إلى الصحارى والفلوات وسفر بسير القلب عن أسفل السافلين إلى ملكوت السموات، وأشرف السفريْن السفر الباطن ... » إحياء علوم الدين، ج02، دار المعرفة، بيروت، لبنان، دط، دت، ص 244. أو الرحلة الأدبية المتخيلة كـ " **رسالة الغفران** " لأبي العلاء المعري، و" **التوابع والزوابع** " لابن شُهيد الأندلسي.

[1]- أحمد مختار عمر وآخرون، معجم اللغة العربية المعاصرة، ج1، عالم الكتب، القاهرة، مصر، ط1، 2008 م ص871.

مجدي وهبه وكامل المهندس، معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب، مكتبة لبنان، بيروت، لبنان، ط02، 1984، ص17.

[2]- ناصر عبد الرزاق الموافي، الرحلة في الأدب العربي حتى نهاية القرن الرابع الهجري، دار النشر للجامعات المصرية، القاهرة، مصر، ط01، 1995، ص41.

[3]- صلاح الدين الشامي :" الرحلة العربية في المحيط الهندي ودورها في خدمة المعرفة الجغرافية "، مجلة عالم الفكر، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، ع04، مج 13، يناير / فبراير / مارس1983، ص 13.

حقوق تراعى هذه المحاضرات حصريا للأستاذ الدكتور طالب رشاي

بين الإفادة عندما يخبرنا عما يراه، الإمتاع عند رصده ما هو عجيب، فالرحالة يتقمص شخصية السارد أو القاص » [1]

ولعل أجمع تعريف لها وهو ما أورده أحمد بن المحبوب بقوله : « الرحلة مصطلح أدبي وجغرافي يقصد به غالبا ذلك المنتوج الفني الذي يروم التنظير لأدبيات السفر والمسير، ذلك الخطاب الذي يتبع نشاط الرحالة وهو يجوب البلاد ويقطع المسافات؛ إما عبرة واستبصارا، او حجا واعتمارا، وربما نزهة واستطلاعا، او طلبا للمعارف والعلوم، أو سعيا لاكتساب التجارة والعروض » [2]

إن الرحلة مجال خصبٌ للمتعة والفائدة لطالب الأدب والتاريخ والجغرافيا وعلم الاجتماع والأنثروبولوجيا والإثنوغرافيا *، وهو في نهاية الأمر كلٌّ مركَّبٌ من مشاهدات وتخييل وانطباعات للرحالة من شأنها أن تفتح نوافذ على العالم المعلوم والمجهول للقارئ حتى يكتشف ويتعرف على البلدان والمجتمعات والعادات والتقاليد والأديان والآثار خلال مسيرة رحلته، وذلك لأهميتها في رصد كثير من الحقائق التاريخية والطبيعية والثقافية والاجتماعية.

إنَّ أدب الرحلة هو تقرير واقعي في الغالب في ضوء المحددات الجغرافية والزمانية التي يعيشها الرحالة، إضافة لذلك فهو ترجمة وجدانية وفكرية محكومة بجملة الظروف التي يعيشها صاحبها فيه، وهو يحدد موقف الذات من الآخر، المباين في فضائه الجغرافي والثقافي والاجتماعي، يقول عماد الدين خليل مبرزا حقيقته : « وأدب الرحلة .. في بدء الأمر ومنتهاه .. هو محاولة لاكتشاف سر الأشياء .. والتعرف على تكوينها الذي يبدو أحيانا ككتل الجليد العائمة في المحيطات والبحار، لا يظهر منها سوى العشر، وتبقى الأعشار الأخرى مغيبة تحت الماء » [3]

ومع أن المشتغلين على أدب الرحلة لا يتناولون منها إلَّا الخطابات الواقعية الحاصلة على الحقيقة في أمكنة محددة وأزمنة محصورة، إلا أن الرحلة يمكن أن تكون خيالية، فيها « يطلق الكاتب عنان تفكيره، لينقله بعيدا عن واقعه وعالمه إلى أماكن أخرى، وأزمنة متباعدة » [4] ولعل الخطابات الرحلية المتخيلة من شأنها أن تفتح مجالا قرائيا خصبا للتحليل والتحقيق والمناقشة واكتشاف سماتها المميزة، التي تنفرد بها عن الخطابات الرحلية الواقعية.

وهنا لابد من الإشارة إلى أن كثيرا من مادة الرحلات لا تبعدُ ولا ترتقي لأن تكون مدونة أدبية فيها ما في الفنون الأخرى كالشعر والقصة والمسرحية والمقامة من مقومات الأدب ومعاييره

---

[1]- سعيد بن سعيد العلوي، أوروبا في مرآة الرحلة صورة الآخر في أدب الرحلة المغربية المعاصرة مطبعة النجاح الجديدة, الدار البيضاء، المغرب، 1995، ط 1، ص 14.

[2]- أحمد بن المحبوب، الرحلات الشنقيطية صوب الجزيرة العربية، مجلة التاريخ العربي، ع27، صيف 2003، يمكن الاطلاع على المقال من خلال رابط المجلة التالي :

http : // www.attarikh - alarabi.ma/Html/adab27.htm

*- الإثنوغرافيا : « كلمة معربة تعني الدراسة الوصفية لأسلوب الحياة، ومجموعة التقاليد، والعادات والقيم، والأدوات والفنون، والمأثورات الشعبية لدى جماعة معينة أو مجتمع معين، خلال فترة زمنية محددة » ينظر: حسين محمد فهيم، أدب الرحلات، مرجع سبق ذكره، ص43، 44.

[3]- عماد الدين خليل، من أدب الرحلات، دار ابن كثير، بيروت، لبنان، ط01، 2005، ص 06.

[4]- حسين محمد فهيم، أدب الرحلات، مرجع سبق ذكره، ص 150.

المعروفة، ولكن مع هذا توجد نماذج رحلية تجمع كثيرا من هذه المقومات التي تجعل منها جنسا نثريا مستقلا له خصوصيته الأدبية والفكرية.

وقد تنوعت تسمياته عند المشتغلين عليه والباحثين فيه، من ذلك : الأدب السياحي، أدب المذكرات والسير الذاتية، الأدب الجغرافي، أدب السفر، إلا أن الأشهر بينها والأكثر تداولا أو أدب الرحلة أو أدب الرحلات. [1]

دوافع الرحلة ومقاصدها :

أجمل فؤاد قنديل أغراض الرحلة التي تتعدد أسبابها وغاياتها وتختلف من شخص لآخر، ومن جماعة لأخرى، ومن زمن لزمن، إلا أنها لا تكاد تخرج عمَّا يلي[2]:

1/ الدوافع الدينية : والتي تكون فيها رحلة الإنسان لأداء فريضة شرعية كالحج والعمرة، أو لزيارة القبور أو الأماكن المقدسة، أو من أجل الدعوة إلى الله أو الجهاد في سبيله.

2/ دوافع علمية أو تعليمية : وتظهر في ارتحال الفرد أو الجماعة من أجل طلب العلم الشرعي أو الدنيوي إلى بلد يعرف بتمكن أصحابه في هذه العلوم، وقد ضرب العرب أروع الأمثلة في الرحلة إلى طلب العلم، كما كان يصنع أصحاب الحديث واللغة والأدب، ومن قبيل هذا تدخل الرحلات الاستكشافية والجغرافية والعلمية.

3/ دوافع سياسية : وتظهر في الوفود والسفارات بين الملوك والأمراء وحكام الدول الأخرى لاستشارات أو عقد اتفاقات، أو توطيد علاقات، أو مناقشة شؤونٍ وما شابه ذلك.

4/ دوافع سياحية وثقافية : وهذه تصدر في الغالب عن نزعة شخصية ورغبة ذاتية تتملك صاحبها من أجل التنقل لتغيير الأجواء والترويح عن النفس، ومعرفة الآخر واكتشاف خصوصياته اللغوية والثقافية والدينية والتاريخية والاجتماعية، واكتساب خبرات في الحياة من خلال مشاهدة ما تتميز به البدان الأخرى من آثار وطبيعة وعمران .

5/ **دوافع اقتصادية :** ويتجلى ذلك في التجارة وتبادل السلع، أو هروبا من الحياة المعيشية الصعبة، من انعدم الدخل أو ضيقه، والرغبة في الحصول على حياة كريمة توفر العمل والرفاهية والتعليم والصحة وغيرها.

6/ **دوافع صحية :** من أجل الاستشفاء والعلاج، أو إراحة النفس وتخليصها من الأكدار والاضطرابات التي أصيبت بها في بلادها، وقد يكون هربا من أمراض وطواعين وأوبئة.

حقوق طبع محفوظة للأستاذ الدكتور طارق زينای

[1]- ينظر للاستزادة حول أدب الرحلة وإشكاليته المصطلحية والمفهومية : نصيرة بحري : " أدب الرحلة إشكالية المصطلح وزئبقية المفهوم " ، مجلة حوليات التراث، جامعة مستغانم، ع19، سبتمبر 2019، ص 43، 59.

[2]- يُنظر: فؤاد قنديل، أدب الرحلة في التراث العربي، مكتبة الدار العربية للكتاب، القاهرة، مصر، ط02، 2002، ص19، 20.

نموذج عن أدب الرحلات في المشرق :

رحلة سلام الترجمان:

إن رحلة سلام الترجمان إلى سور الصين الشمالي قد تكون حقيقة تاريخية، وإن كان سببها الذي يذكره الجغرافيون العرب — كالقزويني وياقوت — على لسان الرحالة نفسه، أشبه بأسطورة خيالية. والظاهر أن حديثها كان مشهورًا في العصور الوسطى. وقصة هذه الرحلة أن سلامًا الترجمان يزعم أن الخليفة العباسي الواثق بالله (٢٢٧–٢٣٢هـ/٨٤٢–٨٤٧م) رأى في المنام أن السد الذي بناه الإسكندر ذو القرنين (والذي يقع بين ديار المسلمين وديار يأجوج ومأجوج) مفتوح؛ فأرعبه هذا المنام، وأمر سلامًا بأن يرحل ليتفقد السد. فسار الترجمان من مدينة سر من رأى، ومعه خمسون رجلًا ومائتا بغل تحمل الزاد والماء، وكان الخليفة قد أعطاه كتابًا إلى حاكم أرمينية ليقضي حوائجهم ويسهل مهمتهم. فعُني هذا الحاكم بالرحالة ورجاله، وزودهم بكتاب توصية إلى حاكم إقليم السرير. وكتب لهم هذا الحاكم إلى أمير إقليم اللان. وكتب هذا الأمير إلى فيلانشاه. وكتب لهم فيلانشاه إلى ملك الخزر في إقليم بحر قزوين؛ فوجه معهم خمسة من الأدلاء وسار الجميع ستة وعشرين يومًا؛ فوصلوا إلى أرض سوداء كريهة الرائحة وكانوا قد حملوا معهم بإشارة الأدلاء خلًّا لتخفيف هذه الرائحة. وسار الركب في تلك الأرض عشرة أيام ثم وصلوا إلى إقليم فيه مدن خراب، وساروا فيها سبعة وعشرين يومًا. وقال الأدلاء: إن شعب يأجوج ومأجوج هو الذي خرب تلك المدن. وانتهوا إلى جبل فيه السور المنشود. وعلى مقربة منه حصون تسكنها أمة مسلمة تتكلم العربية والفارسية؛ ولكنها لم تسمع بخليفة المسلمين قط. وتقدم الركب إلى جبل لا نبات عليه يقطعه واد عرضه مائة وخمسون ذراعًا. وفي الوادي باب ضخم جدًّا من الحديد والنحاس، عليه قفل طوله سبعة أذرع وارتفاعه خمسة، وفوق الباب بناء متين يرتفع إلى رأس الجبل. وكان رئيس تلك الحصون الإسلامية يركب في كل جمعة ومعه عشرة فرسان، مع كل منهم مرزبة من حديد، فيجيئون إلى الباب ويضربون القفل ضربات كثيرة؛ ليسمع من يسكنون خلفه، فيعلموا أن للباب حفظة، وليتأكد الرئيس وأعوانه الفرسان من أن أولئك السكان لم يحدثوا في الباب حدثًا.

ولما فرغ سلام الترجمان ورفقاؤه من مشاهدة السور رجعوا إلى سر من رأى مارّين بخراسان. وكان غيابهم في هذه الرحلة ثمانية عشر شهرًا.

وقد ذكر المستشرق الفرنسي كرادي فو Carra de Vaux أن من المحتمل أن هذه الرحلة كانت إلى الحصون الواقعة في جبال القوقاز، وعلى مقربة من دربند (أو باب الأبواب)، في إقليم داغستان غربي بحر قزوين. ومهما يكن من الأمر فإننا لا نعرف عنها إلا بعض المقتطفات في كتب التاريخ والجغرافية، ولا سيما «نزهة المشتاق» للإدريسي و«معجم البلدان» لياقوت.

حقوق التوظيف محفوظة للأستاذ الدكتور طارق زيدان

نموذج عن أدب الرحلات في المغرب (الجزائر) :

رحلة ابن حمادوش (***) :

هو أبو محمد عبد الرزاق بن محمد بن أحمد بن حمادوش بن علي المالكي الجزائري، ولد بالجزائر سنة 1107 ه، 1695 م من أسرة بسيطة كانت تعمل في الدباغة، اشتغل بقرائة الكتب والعلم، اشتهر بعلم النبات والطب والصيدلة والفلك والمنطق والنحو والأدب وغلبت على تآليفه العلوم التجريبية عاصر الكثير من الأحداث في القرن الثامن عشر منها احتلال الأسبان لمدينة وهران وثورة أحمد الريفي المغربي وفراره إلى الجزائر، والتي روى أحداثها بتفصيل في رحلته الشهيرة، لم يعلم تاريخ وفاته بالتدقيق، ولكن كثيرا من المصادر ترجِّح أنه تجاوز التسعين من عمره، له الكثير من المؤلفات نذكر منها :

*/ تأليف في علم الفلك

*/ تاليف في الاسطرلاب والربع المقنطر

*/ الجوهر المكنون من بحر القانون(في الطب).

*/ بغية الاديب في علم التكعيب واسمه ايضا فتح المجيب في علم التكعيب

*/ تعديل المزاج بسبب قوانين العلاج

*/تاليف في المنطق سماه الدرر على المختصر (مختصر الشيخ محمد بن يوسف السنوسي)

وقد اشتهر برحلته التي قادته إلى تطوان ومكناس وفاس في المغرب الأقصى الموسومة " **لسان المقال في النبا عن النسب والحسب والحال** "، والتي نختار منها نصًّا حتى نتعرف على مضمونها وأسلوب صاحبها فيها، وهي مقامة أوردها بين يدي رحلته، يقول فيها : « الحمد لله طحى بي ضيق الأسباب، وهوى الاكتساب، إلى أن خطرت من شدة الإياس، إلى بلاد الملك مكناس، أخوض الغمار، لأجتني الثمار، وأقتحم الأخطار، لكي أدرك الأوطار، وكنت لقفتُ من أفواه العلماء، ووصايا الحكماء، أن الخطر غرور، وأن المسافر مبرور، فشددت منطقتي، لكي أدفع أزمتي، ورافقت اثنين من النجار، كأنهما من الأبرار، فاكترينا من حمار كأنه أراد ابتدائي بالعار، فرددت عاره، وخبأت ناره، بما فيه أوطاره، حتى يحمد جواره، فخرجنا من تطوان إلى السفر، يوم السبت ثامن عشر صفر، فبتنا بوادي بوصفيحة، فاستقل بإصلاحه للصحيفة، ومنه إلى وادي الخروب، لعلي أدرك به المرغوب، ومنه إلى وادي المخازي، لما قتل فيه الغازي، ومنه تعدينا إلى بلاد يقال لها القصر، فليس يسكنها حر، مهدمة البناء، نائية الماء، ومع أنها كبيرة المنشأ، عددت بها ثلاث عشرة صومعة، سوداءات كأن لبنها موضوعة، فبتنا بسيدي علي العسر، خرج إلينا أقبح العشيرة كأنه مغري، ومنه زرنا السيدة ميمونة تآكناوت، التي ردت يمين سيدي أبي

***- ينظر للاستزادة : عبد الرزاق بن حمادوش الجزائري، رحلة ابن حمادوش الجزائري المسماة : " **لسان المقال في النبا عن النسب والحسب والحال** " ، تح : أبو القاسم سعد الله، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، الجزائر، 1983، ص09، 10. وعبد الرزاق بن حمادوش الجزائري /https://ar.wikipedia.org/wiki

سلهام بجلبها من فاس البنات، وبتنا في أول المرج الطويل، الذي به طير الماء من غر وبط وغيره كثير لا قليل ... » [1]

رحلة الحسين الورثيلاني (****) :

هو الحسين بن محمد السعيد الورتيلاني، عالم وشاعر وأديب ومتصوف ورحَّالة ولد في بني ورتيلان من منطقة سطيف سنة 1125ه. من أسرة جزائرية معروفة بالعلم، فأبوه وجده كانا عالِمين كبيرين في المنطقة. حفظ القرآن الكريم وهو صغير السن وكان يتردّد على المدرسة القرآنية التي يشرف عليها والده، أين تضلَّع في المسائل الفقهية وعلوم التوحيد، وإلى جانب اهتمامه بدُنيا التصوف، تفرّغ لدراسة اللغة العربية والتبحُّر في آدابها والنحو ودراسة التاريخ.

تفرغ للعلم والتصوف على الطريقة الشاذلية والتدريس في بني ورتلان ومناطق مختلفة من الجزائر، وكثيراً ما كان يطول به المقام في بجاية حيث تتلمذ على يده الكثير من أبناء المنطقة ممن أصبحوا فيما بعد أسماء هامة في الوظائف الدينية. وقد حارب بقوة البدع المنتشرة التي نسبت إلى الدين ودعا إلى تعاليم ومبادئ الإسلام الصحيحة. وتوفي سنة 1193ه، ترك العديد من المؤلفات ذات التوجه الصوفي والديني نذكر منها :

*/ "شرح وظيفة سيدي يحي العيدلي" للإمام سيدي يحي العيدلي.
*/ "شرح محصل المقاصد للإمام أبي العباس أحمد بن زكري التلمساني"
*/ شرح مختصر الأخضري في العبادات على مذهب الإمام مالك ويليه للأخضري
*/ وأخرى "وقفت على ساحل وقفت الأنبياء دونه"
*/ قصيدة في مدح الرسول صلى الله عليه وسلمَّ من 500 بيت.

تعدُّ رحلته "**نزهة الأنظار في فضل علم التاريخ والأخبار**" المعروف بالرحلة الورتلانية، من أهم المصادر التي تضاف إلى مؤلفات الرحالة المغاربة، ومن بين أبرز الرحلات التي شهدتها الفترة العثمانية خلال القرن الثامن عشر، حيث جمعت بين التحصيل العلمي ومقاصد الحج، وفيها سجل الورتلاني ما عاشه وشاهده في كل مكان وقف عنده منذ أول يوم اعتزم فيه الرحلة، وقد فصّل فيه تفصيلاً إلى غاية عام 1182هجري سنة الشروع في إملاء ما كان قد جمعه الورتلاني في أوراقه الكثيرة، ليُحوّلها في النهاية إلى عمل تاريخي غاية في الأهمية، وفيما يلي نأخذ نموذجا منها تحت عنوان : ((دخولنا مكة المشرفة زادها الله تشريفا وتعظيما وتكريما)) قوله :« فدخلنا مكة فلم تغادر في النفس ترحة، وأزالت عن الجفون كل فرحة، فدخلناها في زحمة عظيمة كادت

---

[1]- عبد الرزاق بن حمادوش الجزائري، رحلة ابن حمادوش الجزائري المسماة : " لسان المقال في النبإ عن النسب والحسب والحال " ، تح : أبو القاسم سعد الله، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، الجزائر، 1983، ص71، 72.

****- ينظر للاستزادة : الحسين بن محمّد الورثيلاني، الرحلة الورثيلانيّة الموسومة بنزهة الأنظار في فضل علم التاريخ والأخبار، ج01 مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، مصر، ط01، 2008، ص 05- 08.
الحسين الورثيلاني https://ar.wikipedia.org/wiki/

النفوس أن تزهق غير أن سرورها بالوصول إليها خفف بعض الألم بل قد زال التعب والنصب كأن النفوس في وليمة عظيمة لا يعلمها وما فيها من الفرح إلا من منحه الله بل الأرواح قد تجلى عليها ربها فخرت صعقة مغشية عليها فغيبها عن الأكوان كلها بمشاهدة مكونها ومن جملة من غابت عنه هذا الغيب فلم تكترث بما أصابها من الهم والمشقة فلما هب نسيم جوار الحبيب عليها أيقظها وأشهدها رسوم مكان الوصال، ودلائل الحضرة وسواطع الانتقال، فعلمت بيت الرب، وتعلق به الجبح واللب، سدل كل حبيبت سوى هذا الحبيب وراءه، فأقام كاس الجوار وأداره، وصار شذاؤها انتظاره، فهبطنا منحدرين إلى أن وصلنا قرب البيت فدخلنا المسجد من باب بني شيبة، فأفاض الله علينا من جوده كرامة وهيبة، فظفرنا بالأمن والأمان والسلام من باب السلام » [1]

ويقول وهو في الحضرة المحمدية في مسجده الشريف : « ولما استقر بنا المنزل، واجتمعت فيه الأصحاب والأهل، ذهبنا إلى الحرم الشريف، والمسجد المنيف، إلى أن وصلنا فدخلنا من باب السلام، على صاحبه أفضل الصلاة والسلام، ولقد تاه القلب في الجلال، والبهاء والكمال، وانبسط علينا النور في الحال، وكنا في التنقل في مراتب التجلي أعز انتقال، فاطمأن الفؤاد وطاب الحمد والثناء على الوصول إلى روضة المتعال، فبلغ القلب مناه فغاب عن الأكوان بكامل البدور وقمر العز فتنزه عن سواه غير أني خفت بل تيقنت أني لست أهلا لمشاهدة الرسول، ولا ممن يتأدب بأدب الفحول، نعم الفضل والمنة على الأصاغر لا يزول، فتوجهت إلى الموضع الذي صلى فيه الرسول، وهو القريب من العمود المخلق لأنه ليس بمجهول، فركعت تحية المسجد ومع ذلك أني في مرض ونحول، وهو مرض الإسهال وتقوى علي السقم غير أن القلب مني قوي يجول في العالم العلوي يسري وبالعلوم اللدنية يقول، فلا يكاد يرجع بل يتيه ويتعالى في الارتفاع فهو بعيد عن التنزل والنزول، فلم يمر علي زمان أحلى من هذا الزمان، ولا استقررت بمكان أحلى من هذا المكان، فذلك الوقت هو عيد الأرواح، وجنة الأشباح، وبستان الفؤاد يزهر بالأقاح، وحور المعارف قد حليت بحلل الألمع والألماح، فيها لها من صفقة قد علت وقامت بالأرباح، فليس لذلك الزمان ثان، ولا لذلك العصر أوان، بخ بخ على زيارة الحبيب، والأشراف على رحيم قريب، حريص عليكم بالمنى، رءوف بالغنا، رحيم بالهنا، لطيف بالسنا، شفيق يودنا، هنيئا مريئا لنا، إذ قال مرحبا وأهلا وسهلا بوفودنا ... » [2]

الخصائص الفنية لأدب الرحلة :

المتأمل لما وصلنا عن الرحالة من مدونات يرى ظاهرة تلفت الانتباه، وهي تفاوتها من حيث اللغة والأسلوب، بين العلمية والأدبية؛ فهناك من يستخدم النثر العلمي الخالص في رحلاته، ويبرز ذلك عند أصحاب الجغرافيا الوصفية، كما عند اليعقوبي وابن الفقيه والمهلبي وغيرهم، ولهذا يكثر عندهم الأسلوب المباشر والوضوح، والتقلل من استعمال المحسنات البديعية والخيال والتصوير.

---

[1]- الحسين بن محمّد الورثيلاني، الرحلة الورثيلانيّة الموسومة بنزهة الأنظار في فضل علم التاريخ والأخبار، ج02 مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، مصر، ط01، 2008، ص 452.

[2]- المصدر السابق، ج02، ص 530، 531.

وهناك من يستخدم لغة علمية في غالب ما يكتبه، ولكنه يستأنس في كثير من الأحيان ببعض الاستعمالات الفنية، خاصة في مقدمة الكتاب ومقدمات الفصول، وأكثر ما يظهر هذا النوع عند أصحاب الأدب الجغرافي مثل : المسعودي وابن حوقل والمقدسي وغيرهم .

وهناك نوع ثالث : متعلق بأدب الرحلات - موضوع محاضرتنا - والذي يتخذ صاحبه من الكتابة الفنية غاية في حدِّ ذاتها؛ لأنه لم يكن يقصد من تدوين رحلاته الجانب الجغرافي، بل اتخذها أداة للتعبير عن تجربته الإنسانية والأدبية، وعن ما شاهدوه ورأوه خلال رحلتهم، ولهذا جاءت كتابتهم سردية خالصة من بدايتها إلى نهايتها، ومن نماذج هذا النوع نجد ابن فضلان .

إن الشيء المميز لأدب الرحلات أنه يشكل مزيجا سحريا مبهرا من معظم الأجناس النثرية والشعرية على السواء، يقول عماد الدين خليل في هذا : « فأدب الرحلة ليس بحثا في التاريخ ولا وصفا جغرافيا ... كما أنه ليس قصة قصيرة، أو رواية أو قصيدة شعر، وإنما هو هذا وذاك، ومن ثم يكتسب خصائصه المتميزة وطعمه العذب ... وقدرته في الوقت نفسه على تلبية مطالب المؤرخين والجغرافيين والأدباء الذين يطمحون لمعاينة الوقائع، وسبر غورها العميق » [1]

وفيما يلي سنحاول إجمال أهم الخصائص الفنية التي تميز أدب الرحلات من حيث أشكالها ومضامينها [2]: ذ

*/ الغالب على كتَّاب الرحلات هو استعمالهم المفردات السهلة والواضحة والمألوفة في زمنهم، والمفردات الأعجمية الواردة عندهم يتم شرحها، وفي بعض الأحيان يستعمل الكتاب الألفاظ العامية التي تزري بالأسلوب المعبَّر به.
*/ كثرة استعمال الجمل الفعلية على حساب الجمل الاسمية؛ لدلالتها على الحركة والحدث، وهو ما يتفق مع طبيعة الرحلة القائمة على الانتقال الدائم والحركة المتكررة، وإن استخدمت الجمل الاسمية فهي في الغالب قصيرة لا تتجاوز ركني الجملة : المبتدأ والخبر.
*/ الميل إلى استخدام السرد القصصي؛ لأن الرحلة بطبيعتها حكاية تجتمع فيها أغلب مكونات الحكاية، ففيها بداية وعرض ونهاية، وفيها فكرة وحبكة وزمان ومكان وشخصيات وأحداث، ومن السرد القصصي يظهر الوصف كتقنية حاضرة بقوة في أدب الرحلات، ويأتي في الغالب دقيقا أمينا في تصوير ما يشاهده الرحالة، وكذا الحوار الذي يأخذ في الغالب صيغة المذكر، ولكن بالرغم « ما يتسم به أدب الرحلات من تنوع في الأسلوب من السرد القصصي إلى الحوار إلى الوصف وغيره، فإن أبرز ما يميزه أسلوب الكتابة القصصي المعتمد على السرد المشوق » [3]
*/ تحري الموضوعية والأمانة والبعد عن الهوى والميولات الشخصية عند إيراد المواقف

---

[1]- عماد الدين خليل، من أدب الرحلات، مرجع سبق ذكره، ص06.
[2]- يُنظر: ناصر عبد الرزاق الموافي، الرحلة في الأدب العربي حتى نهاية القرن الرابع الهجري، مرجع سبق ذكره، ص 16، 17.
[3]- حسني محمود حسين، أدب الرحلة عند العرب، مرجع سبق ذكره، ص08، 09.

حقوق تشريف محاضرات حصرية للأستاذ الدكتور طارق زياني

والأحداث المختلفة التي مرَّ بها الرحالة أو سمع وقرأ عنها .
*/ تضمين كتاب الرحلات لآيات القرآن الكريم والحديث النبوي والشعر العربي؛ وهذا حال النصوص السردية العربية كلها، ويرجع ذلك إلى غلبة الخطاب الديني والأدبي على كتَّاب الرحلات، والذي يكتسب بها مصداقية عند القرَّاء والسامعين، ففي حالة تضمين الشعر يلاحظ أن من الرحالة من يورد شعرا من إنشاده، ومنهم من ينقل شعر غيره من الشعراء السابقين أو المعاصرين له، ففي الحالة الأولى تظهر مقدرة الرحالة الأدبية على قرض الشعر، وفي الثانية تظهر سعة اطلاعه ومعرفته بالآثار الأدبية المختلفة.
*/ الاتساع والشمول والاستغراق في تناول الموضوعات والحوادث والعلوم من تاريخ وجغرافيا وسياسة ودين واجتماع.
*/ التنويع في الرحلات بين الجد والهزل؛ وهذا في الغالب انعكاس لنفسية الكاتب أثناء رحلته، ما يمرُّ به من مواقف متباينة، وما يكون عليه مزاجه فيها، ولأن أدب الرحلة هو صورة للسيرة الذاتية لصاحبها، يُراد منها توصيل حياة الشخص كما هي في الواقع في فرحها وحزنها، وقوتها وضعفها، وآلامها وآمالها ...

حقوق تأليف هذه المحاضرات حصرية للأستاذ الدكتور طارق زينلي